المحاضرة الثانية: أوضاع الدول المغاربية في أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م.

يبدو أن أحد أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عامة هو نتاج ضعف الدويلات المغاربية، التي كانت تعيش حالة من التفكك والصراع السياسي، فمنذ سقوط دولة الموحدين والمغرب العربي يعيش حالة من الشقاق والصراع بين دويلاته، حيث لم يكن الإسبان ليتوسعوا في المنطقة لو لم يعلموا يقينا أن الوضع يسمح لهم بذلك.

بالإضافة إلى أنّ الحالة العكسية للحضارة كانت في آخر مراحلها، ففي الوقت الذي كان فيه الاسبان يعزّزون وحدتهم ويتوسعون خارج نطاق تواجدهم، كان التطاحن والاقتتال على السلطة والتفكك الداخلي في أوجه، ذلك أن الكثير من القادة فضّلوا مصالحهم الشخصية عن الوحدة، وهكذا أصبح المغرب العربي كلّه لقمة صائغة للمحتل الاسباني.

1-الصراع السياسي في دول المغرب العربي 1492-1500م

كان المغرب العربي مقسما لثلاث دول: المرينيون في المغرب والزيانيون في الجزائر والحفصيون في تونس، حكمت الدولة الزيانية الجزائر لقرون وذلك لغاية سقوطها سنة 1554م، ولعلّها كانت أقوى سلطة في الجزائر، أين خضعت للدولة الموحدية "وتوسعت في بلاد بني واماتوا وبني يلومي وبنواحي وادي ميناس وأحواز غليزان".[1]

لكن ما بدأت الدولة الموحدية في الانهيار حتى سارع حكام الدولة الزيانية إلى الإستقلال بأنفسهم والسيطرة على المغرب الأوسط، ولم يكن هذا الاستقلال إلاّ بداية لتفكك المغرب العربي إلى دويلات استقلت بنفسها عن سلطة الموحدين.

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المطبعة العربية، الجزائر،1955م، ص115,

ثم سرعان ما أصبحت دولا متقاتلة فيما بينها، حيث حاول المرينيون والحفصيون مرارا احتلال الجزائر وإلحاقها بدولتهم، فاحتل الحفصيون بجاية وقسنطينة والزاب.

لقد كان امتداد الدولة الزيانية الفعلي لا يتجاوز مدينة تلمسان في الحقيقة وساحل البحر، في حين كانت المناطق الجزائر الأخرى عبارة عن إمارات ودويلات مستقلة، مثل: مدينة تنس، والجزائر العاصمة التي يحكمها الثعالبة –سالم التومي– تحت نظام الجماعة، ومملكة كوكو تحت سلطة ابن القاضي بالإضافة إلى هضاب التيطري، ومليانة... إلخ.

وأما سلطة الحفصيين "فقد امتدت لتشمل الجزء الشرقي من الجزائر، مثل: قلعة بني عباس وإمارات أخرى راوحت مكانها فمرّة تستقل لنفسها بالحكم وتارة أخرى تدين بالولاء إما للزيانيين أو الحفصيين، مثل "إمارة بني المهلهل، وإمارة عائلة بوعكاز التي تمثل العرب الذواوة في الزاب والحضنة وبعض جهات الصحراء، وجهة حمزة وقبائل صنهاجة.[2]

وأما في الجهة الغربية فقد كان المغرب الأقصى تحت سلطة بني مرين، الذين استقلوا هم بدورهم عن الدولة الموحدية، وأحكموا قبضتهم على إمارة فاس ومراكش، في حين انفصلت إمارة سجلماسة تحت قيادة بنو معقل، وأما الوطاسيون فقد حكموا سلا والرباط.

وما إن أتت سنة 1472م حتى استولى الوطاسيون على فاس ونصّبوا أنفسهم حكاما جددا على المغرب الأقصى عامّة، حيث أطلق الملك المغربي لنفسه لقب "السلطان" وفي أحيان أخرى "أمير المؤمنين".

2- أسباب الإحتلال الإيبيري للمغرب العربي:

[2] أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492–1792م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1968، ص94.

– ضعف السلطات المغاربية سياسيا وعسكريا، ما جعلها في حالة لا تسمح لها بالدفاع عن ثغورها وسواحلها.

– الروح الصليبية وسيطرة الكنيسة على السياسة حيث انعكس هاته الروح على قائديها الملكان الصليبيان المتعصبان إيزابيلا وفيرديناند، ضد كل ما هو إسلامي في المغرب العربي، أين سميّت هاته الحروب بـ "حروب الإسترداد أو Reconquista، أي أن كل ما يقع على سواحل شمال إفريقيا هو إرث للإمبراطورية الرومانية، ويجب إعادته للإرث المسيحي الأوربي.[3]

– استغلال ثروات المنطقة خاصة مع تدهور الاقتصاد الاسباني نتيجة هجرة ساكنة الأندلس واستقرارهم على سواحل المغرب العربي.

– رأى الملوك الإسبان أنّهم قادة العالم المسيحي وهم الورثة الشرعيون للامبراطورية الرومانية، حيث سادت فكرة "ملك واحد ودولة واحدة"[4]، فأسس الاسبان إمبراطورية مسيحية وبدؤوا توسعاتهم في كل من فرنسا وإيطاليا بالاضافة إلى المغرب العربي.

– السعي للسيرة على تجارة الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط، خاصة مع "أهمية الموقع الاستراتيجي الذي تزخر به المدن الساحلية الممتدة من طرابلس ووصولا إلى المغرب الأقصى".[5]

– ادعى الإسبان أن سكان المدن الساحلية في منطقة المغرب العربي، وبخاصة بعد أن انضمّ إليها مسلمي غرناطة والاندلس عامة، أصبحت منطقة تنطلق منها الغارات البحرية ضد السواحل

---

[3] **ينظر:** Vella Andrew.

[4] Norman Housley, Religious warfare in Euroupe, 1400-1536, New York: Oxford University Press 2002, p.78.

[5] دوبالي خديجة، الغزو الاسباني على السواحل الجزائرية (911-917هـ/1505-1511م)، مجلة القرطاس، ع.06، جوان 2017م، ص26.

الإسبانية، مثل: مدينة وهران طرابلس الغرب وجربة، كما منح الملك المغربي مدينة سلا للمهاجرين من الأندلس، حيث اتخذت مركزا ضد الإسبان.

3- الاحتلال البرتغالي والاسباني لمناطق المغرب العربي:

في الوقت الذي كانت الدويلات المغاربية غارقة في التناحر فيما بينها وتعيش انفصالا بغيضا، كان الاسبان قد بدؤوا في احتلال المغرب العربي بمجرد سقوط غرناطة سنة 1492م.

وتعود أولى عمليات الاحتلال في المغرب العربي إلى محاولة الإسبان احتلال مدينة تطوان سنة 1400م، حيث يذكر أحمد توفيق المدني أن الاسبان "قد احتلوا مدينة تطوان وأثخنوا فيها القتل حتى ذهب البعض إلى أن الاسبان قد قتلوا نصف أهل المدينة، وساقوا الكثير من رجالها ونسائها أسرى إلى إسبانيا، في الوقت الذي كان فيه ملك المغرب أبو سعيد عثمان يحارب مملكة بني زيان بتلمسان"[6]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد وفي جانب آخر "فقد احتل البرتغاليون مليلية سنة 1497م، تحت قيادة بيدرو إيستوبنيان رغم المقاومة التي أبداها السلطان الوطاسي بإرسال فيلق من الخيالة لاستعادة المدينة".[7]

وما إن سقطت غرناطة سنة 1492م، حتى راسل كاتب الملكين المدعو فيرديناند زافر الملك الاسباني يقول: إن البلاد [المغرب العربي] في حالة بحيث يبدو أن الرب يريد أن يهبها لصاحبي الجلالة"[8]، وهكذا بدأ عصر جديد من عملية الغزو لدول المغرب العربي، ولإنهاء الحرب مع البرتغال توصل الطرفان إلى اتفاق بتوقيع معاهد "توردیلاس بتاريخ الـ 07 جوان سنة 1494م،

---

[6] أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص66,

[7] De Jamil M et Alt, A History of the Maghrib in the Islamic Period, Cambridge University Press,1987, p146.

[8] صالح عباد، الجزائر تحت الحكم التركي، مرجع سابق، ص26.

حيث تعود الأراضي التي تقع في الجهة الغربية من جزيرة الرأس الأخضر للاحتلال الاسباني، أما تلك الواقعة في الجهة الغربية فهي ملك للبرتغاليين"[9]

أرسل الإسبان في البداية جواسيس إلى منطقة المغرب العربي، ففي سنة 1493م "قام ليزكانو ولورينزو دي زافرا برحلات تجسسية إلى سواحل المغرب الأقصى، وأقام لورينزو دي باديلا حاكم أنتيكييرا في زيّ تاجر مغربي في تلمسان مدّة سنة كاملة.[10]

ولم تتوقف الأطماع الاسبانية عند هذا الحد، فقد دعى رئيس الأساقفة الإسبان الملكة إيزابيلا إلى الاحتلال الكامل للمغرب سنة 1499م، وقد وافقت الملكة على الفكرة مدفوعة بالحماس لكن وفاتها سنة 1504م، جعل فيرديناند الطامح إلى توسيع الوجود الإسباني في البحر المتوسط إلى التفكير في بناء إمبراطورية في إيطاليا، وجعل حاميات على المغرب العربي تفرض على دوله ومناطقه دفع الضريبة وإعلان الولاء للإسبان.[11]

وفي المقابل فقد بدأت الأطماع الاحتلالية البرتغالية مبكرا في الغرب الجزائري، "حيث احتل البرتغاليون المرسى الكبير سنة 1471م ولم يغادروه إلا سنة 1477م، ثم أقاموا مؤسسة تجارية في وهران سنة 1483م وأخرى سنة 1487م".[12]

قاد بعدها البرتغاليون حملة جديدة ضد المرسى الكبير سنة 1501م، غير أن سوء الأحوال آلت دون رسو الجيش البرتغالي خلال ثلاثة أيام كاملة، حيث سمحت هاته المهلة للساكنة المحلية

---

[9] Frances Gardiner Davenport, European Treaties bearing on the History of the United States and its Dependencies to 1648 , Washington, Institution of Washington, 1917, p171.

[10] صالح عباد، مرجع سابق، ص27.

[11] Frances Gardiner Davenport, op.cit, p147.

[12] صالح عباد، مرجع سابق، ص 24.

بالاستنجاد بأهل القرى والمدن المجاورة، حيث تمكنوا في النهاية من هزم القوات البرتغالية ودحرها.[13]

وجه الإسبان حملة جديدة ضد المرسى الكبير عام 1505م، وتعتبر أولى الحروب الاسبانية ضد الدولة الزيانية، أين تم تجميع أسطول يتكون من 170 سفينة حربية في ميناء ملقة، على متنه سبعة آلاف جندي إسباني، كان قائد البحرية هو قيادة رامون دي قرطبة، أما الجيش فسلّمت مقاليده لدييغو فيرناندیز دي قرطبة[14]، وقد غادر الأسطول من ملقا بتاريخ الـ 09 سبتمبر سنة 1505م، وبلغ السواحل الجزائرية في 10 من نفس الشهر[15]، حيث بدأ الهجوم في مساء ذلك اليوم، " ولأنّ المدافعين لم يتجاوز عددهم خمسمائة مجاهد، فإن المدينة سقطت في أيدي الإسبان"،[16] ويذكر ديغرامون قائلا: "لقد قام الجزائريون بمقاومة شجاعة عديمة الجدوى، لكن نيران السفن أجبرتهم على التراجع إلى الجبال، حيث احتل الاسبان قلعة المدينة وجعلوا منها حامية لأنفسهم".[17] وما إن وصل الخبر إلى إسبانيا حتى أعلنت احتفالات الشكر والصلاة للرب ثمانية أيام كاملة[18].

---

[13] دوبالي خديجة، مرجع سابق، ص27.

[14] JESÚS BERMÚDEZ RAMIRO: Modulaciones rítmicas en la lírica latina. Las Odas de Horacio. Madrid: Ediciones Clásicas, 2007, p201.

[15] De Gramont, Histoire d'Alger Sous la Domination Turaue (1515-1830), Pris, Ernest Eroux Editeur, 1887, p06.

[16] دوبالي خديجة، مرجع سابق، ص28,

[17] De Gramont, op.cit, p06.

[18] Ibid, p08.

حتما فإن احتلال المرسى الكبير لم يكن سوى بداية لحرب يسميها الاسبان "حرب الاسترداد"، أي استرجاع جميع الأراضي التي كانت تحت حكم الرومان في منطقة المغرب العربي، والتي هي بالنسبة لهم إرث مسيحي يجب ضمه إلى الإمبراطورية المسيحية الإسبانية الجديدة.

وهكذا وجه الاسبان أنظارهم نحو وهران، فبدأ التحضير للحملة، حيث "غادر قائد حامية المرسى الكبير إلى إسبانيا أين التقى هناك الملكة خوانا التي منحته خمسة آلاف جندي، وجميع التجهيزات الضرورية التي يحتاجها"[19]، وفي 06 جوان سنة 1507م فشل الإسبان في احتلال وهران، رغم أنهم أثخنوا القتل والسبي والأسر في أهلها، كما "تمكن يحيى الثابتي من احتلال تنس بإعانة من الإسبان سنة 1507م".[20]

احتل بيدرو نافارو قلعة باديس سنة 1508م[21]، ثم وجه الاسبان أنظارهم نحو مدينة وهران، فخصص التاج الاسباني 39,6 مليون مرافيدي لاحتلال المدينة، وهي مبالغ ضخمة إذا قورنت بالمبالغ التي دفعها الاسبان في احتلال القارة الأمريكية والتي لم تتجاوز قيمتها 14 مليون مرافيدي[22].

أبحرت الحملة من ميناء قرطاجنّة بتاريخ الـ 16 ماي سنة 1509م، وعلى متنها 15 ألف مقاتل، حيث نزلت بميناء المرسى الكبير يوم 17 ماي، ثم اتجهت نحو مدينة وهران؛ ورغم المقاومة التي أبداها أهل وهران في مجابهة المد الاسباني، إلاّ أن الخائن اليهودي ستورا وبعض الخونة الآخرين قاموا بفتح أحد أبواب المدينة عن غفلة من المجاهدين، فاقتحم الاسبان المدينة

---

[19] De Gramont, op.cit. p11.

[20] أحمد توفيق المدني مرجع سابق، ص109.

[21] De Jamil M et Alt, p147.

[22] Ladero Quesada, Miguel Ángel, Las Indias de Castilla en sus primeros años: cuentas de la Casa de Contratación (1503-1521), Dykinson, 2008, p172.

وفتحوا باقي الأبواب وأثخنوا في أهلها القتل، حتى امتلأت الطرقات بالقتلى، وقيل أن الكاردينال خيمينيس لم يستطع ضبط دموعه وهو يشاهد بشاعة المنظر.[23]

ولم تتوقف الأطماع الاسبانية عند هذا الحد حيث جُهّزت حملة عسكرية بواسطة بيدرو نافارو لاحتلال بجاية، والتي غادرت بتاريخ الـ 01 جانفي سنة 1510م، ووصلت بجاية يوم الـ 05 جانفي. حيث تم احتلالها رغم مقاومة أهلها.[24]

وما إن انتهوا من المدينة حتى قادوا حملة لاحتلال طرابلس الغرب، وذلك بعد أن وقّعوا سلما مع ملك تلمسان يدفع الأخير بموجبه الضريبة، وقد منحت قيادة الجيش إلى بيدرو نافارو حيث تكوّن الجيش من 15 ألف جندي، من بينهم 3 آلاف مقاتل من صقليّة، واختير المالطي جوليانو أبيلا دليلا للحملة باعتباره ذا معرفة جيّدة بالمدينة.[25]

غادر الأسطول مالطة بتاريخ الـ 20 جويلية سنة 1510، ووصل قبالة السواحل الطرابلسية في 24 جويلية أين نصّبت المدافع مباشرة، وبدأ قصف المدينة ثم اجتاح البحارة الاسبان شوارعها، وتمكنوا من احتلال المدينة بعد ثلاثة ساعات من المعارك الضارية، ووفق الرواية الإسبانية فقد تم تحرير 170 أسيرا مسيحيا أغلبهم من صقلية ومالطا.[26]

لكن عديد التقارير تثبت أن الاسبان قد أثخنوا القتل والسبي والأسر في أهل المدينة، بشكل يندب لها الجبين، "فقبل احتلال طاربلس كان تعداد ساكنتها بين الـ 15,000 و20,000 نسمة،

---

[23] أحمد توفيق المدني، مردع سابق، ص111.

[24] Robert Lambert Playfair . Handbook for Travellers in Algeria and Tunis, Algiers, Oran, Constantine, Carthage, Etc. J. Murray, 1887, p 33.

[25] Vella Andrew P, "The Order of Malta and the defence of Tripoli 1530–1551", Melita Historica, Vol. 6, N. 4, 1975, P362.

[26] Vella Andrew P, op.cit, 362-363.

ولكن ما إن احتل الاسبان المدينة حتى قتلوا بين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف نسمة، واستعبدوا بين الخمسة آلاف والستة آلاف طرابلسي.[27]

وأما باقي المدن الجزائرية والمغاربية؛ فاختار الكثير من حكامها دفع ضريبة سنوية، مثل دلس ومستغانم وشرشال وتنس والجزائر العاصمة التي اختار قائدها منح المحتلين قلعة البينيون قبالة سواحل المدينة، وأما قادة تلمسان فوافقوا على دفع الضريبة يوم الـ 05 جوان سنة 1510م.[28]

وهكذا نرى أن الاحتلال الاسباني ليس سوى امتداد لحروب ما يسميه الاسبان بـ "الإسترداد"، أين جعلت هاته الحروب الوازع الديني أساسا لها، وكان لهذا أثره في بشاعة الجرائم التي أوقعها المحتلون في الساكنة المحلية المعزولة، أين لم يستطع القادة الإسبان منع جنودهم المدفوعين بحماسهم الكنسي من التقتيل ضد أهل المغرب العربي.

[27] Hartel, H et alt, The Last Great Muslim Empires, BRILL, 1997, p 138.

[28] Robert Lambert Playfair, op.cit, p34.